



تعيش مدينة إدلب وضعاً لا تحسد عليه، ويختيم على أهل المدينة وريفها جوًّا من الرعب وسط حشود عسكرية وتهديدات لا تتوقف. روسيا وإيران والنظام السوري على أهبة الاستعداد، من أجل خوض المعركة التي يريدون لها أن تكون الأخيرة، والفاصلة في الحرب السورية، وهذا ما يمكن أن يلمسه المراقب من ضخامة حجم القوة العسكرية التي جهزتها روسيا في البحر المتوسط وقاعدة حميميم الجوية.

وسط قعقة السلاح، وحالة الرعب التي يعيشها قرابة ثلاثة ملايين مدني سوري من أهل المدينة واللاجئين إليها، اقتصر رد الفعل الدولي فقط على تهديد الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا للنظام من عواقب استعمال أسلحة كيماوية، بينما زكي مندوب الأمم المتحدة، ستيفان دي ميستورا، العمليات العسكرية المرتقبة، وأعطى الضوء الأخضر لها من خلال سلسلة من التصريحات التمهيدية التي تعيد التذكير بموافقه من معارك حلب والغوطة ودرعا. وفي المحطات الثلاث، أعاد العبارات نفسها، وقدّم الذرائع نفسها للروس، كي يباشروا الحرب داخل مدن مكتظة بالسكان.

حين يأتي الوقت لتسليط الضوء على الدور الذي لعبه دي ميستورا في المسألة السورية، لن يضعه أحد في مصاف المبعوثين اللذين سبقاه في هذه المهمة، كوفي عنان والأخضر الإبراهيمي، ليس لأنه افتقر إلى النزاهة والحياد فقط، ولم يكرّس جهده من أجل الحل، بل سوف يكون مضرب المثل للمبعوث الأممي الذي خان شرف الأمانة التي يجب أن يتحلى بها، بوصفه موظفاً في أعلى هيئة دولية أوفدته في مهمة تحقيق السلام، فتحول إلى عرّاب للجرائم الروسية الإيرانية في سوريا، في ظل سطوة روسيةٍ في مجلس الأمن، وتهاون أميركي غربيٍّ بحال جرائم النظام في سوريا منذ مجردة كيماوي الغوطة.

وتؤكّد المؤشرات كافة أن العد العسكري للمعركة قد بدأ، والموعد المفصلي في ذلك هو يوم السابع من الشهر الحالي، حيث تُعقد في طهران القمة الثلاثية الثالثة بشأن سوريا بين الرئيسين الروسي والتركي. وعلى الرغم من أن الأوساط

المحلية والإقليمية والدولية تعول على هذا اللقاء من أجل إيجاد مخرج يجنب المدنيين كارثة جديدة، ويتلافقى دماراً كبيراً يمكن أن يلحق بالبني التحتية، فإن التصميم الذى تبديه موسكو وطهران على خوض المعركة لا يبشر بأى بارقة أمل، ولا يترك أمام المساعي التركية أي فرصة للنجاح.

ستكون إدلب المعركة الأخيرة، ولا أحد يعرف كيف ستتم. وربما يشكل الجهل بمحりياتها أحد أساليب خوضها من طرف الروس، وهذا ما حصل في الغوطة ودرعا، حيث لجأ الروس إلى أنماطٍ من التكتيكات انتهت بكسب المعركة. ولكن في المرات جميعها كان هناك طريق للخروج لمن لا يريد القتال، ومكانٌ لاستقبال النازحين هو مدينة إدلب. وفي هذه المعركة، لا مفرٌ ولا ممرٌ ولا مستقرٌ لمن يستعدون للهروب. وقد شرعت بعض منصات البروباغندا الروسية في نشر دعاياتٍ بأن هناك ممرات س يتم فتحها من أجل خروجِ آمن للمدنيين، وجاء ذلك على لسان دي ميستورا، لكن هذا الأمر صعبٌ من الناحية اللوجستية، وفي ظل انتشار عسكري كبير في المدينة، تشكل فيه جبهة النصرة نسبة محدودة لا تتجاوز 10%， والباقي يعود إلى فصائل جبهة تحرير سوريا والجبهة الوطنية للتحرير.

لن تكون المعركة نظيفةً، كما يرجو الروس، وسيدفع المدنيون الفاتورة الأساسية من الدم والممتلكات والتهجير. وكما هو الحال منذ معركة حلب التي كانت جبهة النصرة طرفاً رئيسياً فيها، ستتجدد هذه وسيلةٍ كي تتجوّل بنفسها، بعد أن تكون قدّمت الذريعة للمعركة.

لا يختلف أحدٌ على الدور القدر الذي لعبته المجموعات الإرهابية، ومنها جبهة النصرة، في الإساءة إلى ثورة السوريين، لكن استخدامها ذريعة من أجل اقتحام إدلب لا ينطلي على أحد، ولو أنها لم تكن موجودة لخلقها الروس والإيرانيون.

المصادر:

العربي الجديد